الفصح

العيد خروج من رتيب الايام لاعلان مجد يخترق الزمان ليسكنه. لكن صدمة العيد انه يقول انه جديد ثم في ما يليه من ايام ننسى ان الله توسل الينا ان نكون خلائق جديدة ونحن اكتفينا ان نكون فقط لاعبين في الموسم. هل الديانة حلم بجمال لا يأتي؟ أمردّ هذا اننا لا نريد ان ندفع الثمن، ثمن ان نصير بلوراً او مرآة للرب ليرى فيها وجهه ويفرح بنا. ما لي احزن في كل عيد؟ هل لأني اقرأ ان بعض المؤمنين لم يدركوا الرؤية ولم يصيروا بلورا فأرى نفسي مرمياً في وحدتي، منفيا الى صحرائي وانهم اصطنعوا لأنفسهم واحات كاذبة.

مع ذلك لا بد من المتابعة، من الكد ليصبح القلب هو العيد اي هو الماحي بشاعات العالم. ربما كانت الحقيقة في ان هذا التاريخ لا يتغير وانه لن يتغير الا في النفوس التي تقرأه. انها اذن هي التي تغيرت وانها قلة ونحن تاليا في الفاجعة. هل نعيد الفصح فقط في اليوم الاخير وان ما في الكنيسة فقط صور لما سوف يكون، حلم بانتصار الله على الشر. اليوم ما عندنا الا استباق الخيرات رجاء وذوقا.

شيء يطل عليك من ماضٍ حقيقي، من مرور المسيح هنا. الذكرى تفعيل هذه الحفنة القليلة، القليلة المباركة. هذه الحفنة هي التي يلدها الله من جوفه بالبركات والرضاء. هل الرب يمج التافهين، الذين لم يلتهبوا؟ أهم قيء الله الذين لا يستحقون سماء ولا جحيما؟ ومع ذلك هو قال انهم ابناؤه. كيف تنفتح لهم الابواب ليدخلوا وما فيها نار تحركهم؟ لماذا لم يقرأوا ان لهم ان يضرموا النار؟ اذا لم يشعلهم الحب ماذا يفهمون عن الله؟ كيف يبقى الرب هادئا، غير موجع ولم يدخل كل ابنائه في لهيبه؟

كيف تنفتح لي ابواب السماء وهؤلاء متسكعون امام الابواب؟ كيف استلذ فراديس الرب وحدي؟ هل نحن قادرون على ان نسكن الملكوت وليس الله ملكا في الابد على كل الذين قال لهم انه ينتظر ان يدخلوا في ربوبيته. ربما لا يوجعني الاشرار كما يوجعني الفاترون.

* * *

ولكن من اكون انا لأحكم؟ ربما كان لكل امرئ طريقته في الارتكاض. ربما ما كانوا بطيئين او كسالى كما لاح لي. هل للرب عيد وعلى الاكثر عشرون في المئة من اعضاء كنيستي يؤمون المعابد غدا في لبنان. البقية تأكل بيضا وطعاما ابيض كما تقضي بذلك التقاليد. والجدة في ثياب الاولاد الذين استطاع ذووهم شراءها هذه السنة. لعل العيد ظرف لتبيان الفروق الطبقية في هذا الزمن الكئيب.

غير ان ملاحظاتي كئيبة هي ايضاً. سأحاول ان احيي نفسي وان ارنو الى الرب الآتي الي والى اخوتي في الايمان علّنا نحترق معاً في الزمان الرديء ونرى في تهشيم عظامنا السيد القادر على احياء الموتى. ان هذا الاحياء هو الذي جاء الناصري من اجله وهو يقوم به في سره وفي سر الناس وانا لا اعلم. واتمنى الا اكون بصيراً لئلا اشاهد احداً في العذاب الابدي. اني لا اطيق العذاب لغيري. احتمل تصور الجحيم لنفسي. لا احتملها لنفس اخرى.

لنخرج اذاً اليوم الى القيامة عل المسيح يحيى من اصطفى، لعل هؤلاء ينادون بالفصح، لعل النداء يحدث عند الكسالى رغبة في العدْو الى الرجاءات لئلا اموت برداً من كونهم قد تخلفوا. سأقص لهم اذاً قصة القيامة. سآخذ هذا الانجيل اليهم. واذا فتحوه وقرأوا ما تفوه به السيد او ما قاله عنه تلاميذه يفرحون. وهذا سيكون لهم فصحاً صغيراً كل يوم. فليأخذوا من فصحهم ما شاؤوا.

المسيح قام من بين الاموات. سيشاهدون هذا من نفوسهم ان تراءى لهذه القلوب حباً اي اذا احياها. هذه هي المفارقة انه هو الذي يحيي المائتين بشقاء هذا العالم وانك مع ذلك في سعي لتراه يحييك. ما من شك في انك ان التقيت انساناً يعيش عيسويته على شيء من الاشراق ثم تكثف النور فيه لا بد ان يتساقط عليك بعض من ضياء. وكأن عملية الاستنارة فيها مقابسة فالقبس ينتقل من يد الى يد والنور من وجه الى وجه كأننا لا نستطيع ان نكون فصحيين الا جماعة. اي عذر عند هذا الذي لا ينتصب معنا ساعتين او ثلاثاً غداً ويريد ان يعيد. اريد ان اعتقد ان النور الذي فاض من القبر في فجر احد ايام التاريخ سوف ينسكب عليه. ولكنها مجازفة كبرى وقد قيل "الا تجرب الرب الهك".

* * *

انت ان ذقت ما ذاقه القديسون تعرف ان سيدهم قد وطئ الموت بالموت وان لك انت اذاً سبيلاً الى عدم الموت. قد يغيب عنك بهاء كثير كما غاب عن وجهه لما علقوه على الخشبة. ولكن اذا قدرت على ان تراه قد حيا فوق التراب تفهم ان هذا كتب من اجلك وانه حي فوق ترابيتك انت وفوق تصوراتك وهذا التسكع الذي تتسكعه ويجعل ربك يتقيأ.

الله لا يهمه ان يبقى فوق العالم. هذا كلام الفلاسفة لينقذوا سموه. هو ترك العلاء ليجعل هذه الارض مسكنه ويهمه من هذه الارض قلبك. هو لا يهمه الشجر ولا الانهار والبحار ولا اي كائن غير عاقل. هذه كلها جعلها من اجل الشعر فيك. هو اختار قلبك لتراه فيه. هو يسمو اذا تربع فيك. وهو لا يدعك تنتظر القيامة في اليوم الاخير لترى وجهه. واذا قام من بين الاموات ووطئ الموت بالموت فلكي يهبك الحياة اليوم اي حياته تلك التي تنثني فيك لتصير اياك.

قد تكون مغلقاً كقبر وضع عليه حجر. يأتي السيد ويقول ارفعوا الحجر. هذا هو الموت الروحي الذي هو وحده الموت. وتأتي اي مرتا لتقول ليسوع يا سيد لو كنت ههنا لم يمت اخي. اذ ذاك يقول المعلم: "انا هو القيامة والحياة". انت كنت تظن ان مواعد الحياة ستتحقق في اليوم الاخير. هذا طبعاً مكتوب في الكتاب. لكن الذي اتكأ على صدر المعلم في عشاء الحب الذي سميناه العشاء السري فهم ما هو اعمق. فهم ان شخص يسوع هو لك اليوم قيامة وانه لك اليوم حياة. فإن انت آمنت به لن تموت الى الابد.

يقع التعييد غداً. هذا حلو ولكن الاحلى هو الاعمق. والاعمق ان الفصح مقيم فيك اذا ادركت انك عابر من رمادية وجودك او تفهه الى جمال الناصري وتشهيه. بعد هذا لا تجوع الى اي ما كنت تظنه طعاماً لك ومشروباً. وبعد هذا لا تتوق الدنيا ولا صورة فيها. لن تكون بعد هذا جسداً ولا فكراً. تكون قد اضحيت جسده وفكره ودنياه. واذا اشتاقك يكون قد اشتاق نفسه. وعندئذ لا تميز بين الضام والمضموم. ويكون الفصح قد اتى.

المطران جورج خضر